«كـان ذلك بعد شهر من تركه قريته، في بيت عتيق يقع في قرية أخرى بعيدة عن خط القتال»[٢٥]، ونتعرّف على شيء من مواصفات هذا البيت العتيق من خلال ثلاث عبارات أخرى، قصيرة، الاولى والثانية جاءت على لسان الزوجة، إحداها محمولة على صوت الراوي الذي يقدم لقولها، ويدعها تقول، والثانية من خلال حوار ينسرب عبر تداعيات أبي قيس، أما الثالثة فجاءت عبر صوت الراوي مباشرة. في العبـارة الاولى توجّـه أم قيس كلامهـا لابنهـا قيس فتقـول: «إذهب والعب يا قيس في الغرفة الاخرى»[٢٦]. وفي الثانية تقول لزوجها وقد فاجأتها آلام المخاض: «يا إلهي... إرفعني قليلاً، دعني أتكىء على الحائط»[٢٧]. وفي الثالثة يخبرنا الراوي أن أبا قيس «هرول الى الخارج، وحين صفق وراءه الباب سمع صوت الوليد، فعاد وألصق أذنه فوق خشب الباب»[٢٨]. ثمة إذنْ بيت عتيق، مكوّن من غرفتين على الاقل، مبنيّ من حوائط قوية، وله أبواب من خشب، وهذا كل شيء، إذ لا نعرف شيئاً عن محتويات البيت، ولا تنبثق من خلال الفقرات السابقة أية إشارات تدلّ على علاقة واضحة بين البيت وساكنيه، الاّ أن الراوي يعرفنا أن أم قيس «أنجبت بنتاً سمّاها «حسنا» ماتت بعد شهرين من ولادتها وقال الطبيب مشمئزاً: «لقد كانت نحيلة للغاية!»[٢٩]. ومغزى ذلك أن البيت مكان لذكرى أليمة، ولحالة من الفقر وعدم الاستقرار، وإذ نفهم من بعض الاشارات غير المباشرة أن البقاء في هذا البيت لم يستغرق طويلاً، نعرف أنه مكان انتقالي، عابر ومؤقت، كالقرية التي تحتويه، قد يقود الى عودة الى مسقط الرأس (القرية المتروكة ـ الوطن) وقد يقود الى المنفى خارج الوطن، ولأنه قاد الى الاحتمال الاخـير فإنـه يظلّ على صلة بمجال المنفى، وهو في التباسه بين الجبر والاختيار، وفي كونه بيتاً ذا مواصفات ملائمة لحياة الانسان يظلّ على صلة بالوطن، إنه محطة انتقالية بين هذا وذاك، وفيه يلتبس معنى الوطن والمنفى. وقد يكون في هذا، وفي حضور البيت كمكان لذكرى أليمة، ما يفسّر حضوره على لسان الراوي، وغيابه عن تداعيات أبي قيس، وكأنّ هذا الاخير يحاول دفنه في أغوار ذاكرته، أو كأن حضور البيت لم يبلغ الدرجة العالية من الكثافة التي تجعله يتفجر في الذاكرة، فظلّ غائباً عنها، مما دفع الراوي الى جذبه، واطلاعنا عليه، على هذا النحو الباهت، الذي تكاد تنعدم معه الصلة بين البيت والانسان وأحداث الحياة، كما هي في الرواية، وهو أمر ذو دلالة على أن البيت العتيق، والقرية التي تحتويه، محض محطة انتقالية لا يتجاوزان ذلك، وهما غير متجاوبين مع البيت الاصلي، ومع القرية الاصلية، حيث مسقط الرأس (الوطن).

وإذا ما حاولنا العثور على مثل هذا المكان الانتقالي، الذي هو بمثابة منفى مؤقت، داخل الوطن، وذلك في سياق بحثنا عن التكرارات المتجاوبة للأمكنة في روايات كنفاني، فإن محاولتنا ستكون أشبه بالتنقيب عن شيء نادر، يكاد يلامس حدود الغياب، اذ لا نعثر على هذا المكان الانتقالي، الا في حالة واحدة، فقط، هي حالة «سعيد س» وزوجته «صفية» في «عائد الى حيفا» وعبر إشارة عابرة، على لسان الراوي، أيضاً، نعرف من خلالها أن «سعيد س» حين غادر حيفا «على متن زورق بريطاني دُفع اليه دفعاً مع زوجته»[٣٠] انتقل الى عكا حيث قذفه الزورق «بعد ساعة على شاطىء عكا الفضي»[٣١]، غير أننا نعرف، على نحو ضمني، وعبر إشارة أخرى عن الحاح ذكرى «خلدون» على صفية، أنها وزوجها قد تنقلا بين أماكن كثيرة، وبيوت ـ أكواخ كثيرة[٣٢]، ولكن مجيء كلتا الاشارتين، على لسان الراوي، وفي سياق سرد لا يولي عناية خاصة بالمكان، يؤكد، إضافة لما سبق، غياب الحاحية حضور مثل هذه الاماكن عن بنية المكان في روايات كنفاني، ولهذا الغياب حركته الدلالية التي تشيء بانشغال عميق براهنية الحالة الفلسطينية، وبآفاق تحولاتها، أكثر من الانشغال بسرد وقائع حدثت في التاريخ، ولكنها باهتة الحضور، وعابرة.